الصباح الإسلامية
AL-SABAH
www.alsabahpress.com Alsabah Media
No. 5066 | الخميس | 25 جمادى الآخرة 1446 هـ | 26 ديسمبر 2024 م | السنة السابعة عشرة

في تفسير سورة الحجرات: «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»

الشك المطلق في جميع المصادر والأخبار مخالف لأصل الثقة بين الجماعة المؤمنة

«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين. واعلموا أن فيكم رسول الله، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة، والله عليم حكيم».

كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقي. وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير. وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة. فلا بد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها، ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، أن تصيبوا قوما بجهالة، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين».

ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها. فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذا بها. فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء. ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق. فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع. فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق. وقال ابن كثير. قال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك – زاد قتادة وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام – فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد – رضي الله عنه – إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلا، فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالدا – رضي الله عنه – أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد – رضي الله عنه – فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة. قال قتادة: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:» التثبت من الله والعجلة من الشيطان «.. وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حبان. وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة. والله أعلم.

ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء. وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار.

الاندفاع المرفوض

ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفع عند الخبر الأول الذي نقله الوليد بن عقبة، وإشارة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعجل بعقابهم. وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضبا لمنع الزكاة. فجاءت الآية التالية تذكرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائما لوجودها: (واعلموا أن فيكم رسول الله).

وهي حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت. ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة، فتقول السماء للأرض،وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتقوم خطاهم أولا بأول، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة، ويسر أحدهم الخالجة، فإذا السماء تطلع، وإذا الله – جل جلاله – ينبئ رسوله بما وقع، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع.. إنه لأمر. وإنه لنبأ عظيم. وإنها لحقيقة هائلة. قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه. ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب: (واعلموا أن فيكم رسول الله)،اعلموا هذا وقدروه حق قدره، فهو أمر عظيم.

ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم ألا يقدموا بين يدي الله ورسوله. ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحا وقوة، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بوحي الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر. وأنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر. فالله أعرف منهم بما هو خير لهم، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار: (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم).

وفي هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله، وأن يدخلوا في السلم كافة، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه.

نعمة الاختيار

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه، وحرك قلوبهم لحبه، وكشف لهم عن جماله وفضله، وعلق أرواحهم به، وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية، وكان هذا كله من رحمته وفيضه: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم).

واختيار الله لفريق من عباده، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه، ويزينه لهم فتهفو إليه أرواحهم، وتدرك ما فيه من جمال وخير.. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة، دونها كل فضل وكل نعمة. حتى نعمة الوجود والحياة أصلا، تبدو في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى!

وسيأتي قوله تعالى: (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان)فنفصل القول إن شاء الله في هذه المنة.

والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير، وهو الذي خلص قلوبهم من ذلك الشر:الكفر والفسوق والعصيان. وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة. وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة.. وفي تقرير هذه الحقيقة إيحاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم، قبل أن يختار لهم الله. فالله يختار لهم الخير، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير. وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب.

وإن الإنسان ليعجل، وهو لا يدري ما وراء خطوته. وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح. (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا). ولو استسلم لله، ودخل في السلم كافة، ورضي اختيار الله له، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره، وأرحم له وأعود عليه بالخير. لاستراح وسكن. ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى.. ولكن هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء.

السواك مطهرة للفم مرضاة للرب

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: السواك مطهرة للفم مرضاة للرب رواه أحمد وغيره. وثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس من الفطرة: الاستحداد، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر.

وفي «الصحيحين» أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى من هذه الأحاديث وما جاء بمعناها أخذ الفقهاء الأحكام التالية:

مشروعية السواك، وهو استعمال عود أو نحوه في الأسنان واللثة، ليذهب ما علق بهما من صفرة ورائحة.

وقد ورد أنه من سنن المرسلين، فأول من استاك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مطهرة للفم، أي: منظف له مما يستكره، وأنه مرضاة للرب، أي: يرضي الرب تبارك وتعالى، وقد ورد في بيانه والحث عليه أكثر من مائة حديث، مما يدل على أنه سنة مؤكدة، حث الشارع عليه، ورغب فيه، وله فوائد عظيمة، من أعظمها وأجمعها ما أشار إليه في هذا الحديث: أنه مطهرة للفم مرضاة للرب. ويكون التسوك بعود لين من أراك أو زيتون أو عرجون أو غيرها مما لا يتفتت ولا يجرح الفم.

ويسن السواك في جميع الأوقات، حتى للصائم في جميع اليوم، على الصحيح، ويتأكد في أوقات مخصوصة، فيتأكد عند الوضوء، لقوله صلى الله عليه وسلم: لولا أن أشق على أمتي، لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء فالحديث يدل على تأكد استحباب السواك عند الوضوء ويكون ذلك حال المضمضة، لأن ذلك أبلغ في الإنقاء وتنظيف الفم، ويتأكد السواك أيضا عند الصلاة فرضا أو نفلا، لأننا مأمورون عند التقرب إلى الله أن نكون في حال كمال ونظافة، إظهارا لشرف العبادة، ويتأكد السواك أيضا عند الانتباه من نوم الليل أو نوم النهار، لأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل، يشوص فاه بالسواك، والشوص: الدلك، وذلك لأن النوم تتغير معه رائحة الفم، لتصاعد أبخرة المعدة، والسواك في هذه الحالة ينظف الفم من آثارها، ويتأكد السواك أيضا عند تغير رائحة الفم بأكل أو غيره، ويتأكد أيضا عند قراءة قرآن، لتنظيف الفم وتطييبه لتلاوة كلام الله عز وجل.

وصفة التسوك أن يمر المسواك على لثته وأسنانه، فيبتدئ من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، ويمسك المسواك بيده اليسرى.

ومن المزايا التي جاء بها ديننا الحنيف خصال الفطرة التي مر ذكرها في الحديث، وسميت خصال الفطرة، لأن فاعلها يتصف بالفطرة التي فطر الله عليها العباد، وحثهم عليها، واستحبها لهم، ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها، وليكونوا على أجمل هيئة وأحسن خلقة، وهي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع، وهذه الخصال هي:

1 – الاستحداد: وهو حلق العانة، وهي الشعر النابت حول الفرج، سمي استحدادا، لاستعمال الحديدة فيه، وهي الموسى، وفي إزالته تجميل ونظافة، فيزيله بما شاء من حلق أو غيره.

2 – الختان: وهو إزالة الجلدة التي تغطي الحشفة حتى تبرز الحشفة، ويكون زمن الصغر، لأنه أسرع برأ، ولينشأ الصغير على أكمل الأحوال. ومن الحكمة في الختان تطهير الذكر من النجاسة المتحققة في القلفة وغير ذلك من الفوائد.

3 – قص الشارب وإحفاؤه وهو المبالغة في قصه، لما في ذلك من التجميل والنظافة ومخالفة الكفار. وقد وردت الأحاديث في الحث على قصه وإحفائه وإعفاء اللحية وإرسالها وإكرامها، لما في بقاء اللحية من الجمال ومظهر الرجولة، وقد عكس كثير من الناس الأمر، فصاروا يوفرون شواربهم ويحلقون لحاهم أو يقصونها أو يحاصرونها في نطاق ضيق، إمعانا في المخالفة للهدي النبوي، وتقليدا لأعداء الله ورسوله، ونزولا عن سمات الرجولة والشهامة إلى سمات النساء والسفلة، حتى صدق عليهم قول الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقول الآخر:

ولا عجب أن النساء ترجلت
ولكن تأنيث الرجال عجيب

العمل الصالح وأمارات قبوله

إن المسلم يعمل العمل راجياً من الله القبول، وإذا قبل الله عمل الإنسان فهذا دليل أن العمل وقع صحيحاً على الوجه الذى يحب الله تبارك وتعالى، قال الفضيل بن عياض: «إن الله لا يقبل من العمل إلا أخلصه وأصوبه، فأخلصه ما كان لله خالصاً، وأصوبه ما كان على السنة» وذكر الله تبارك وتعالى أنه لا يقبل العمل إلا من المتقين: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ».

فكيف يعرف الإنسان أن عمله قد قبل وأن الجهد الذى قام به أتى ثمرته؟

ذكر علماؤنا أن للقبول أمارات، فإذا تحققت فعلى العبد أن يستبشر، والتي منها:

عدم الرجوع إلى الذنب

إذا كره العبد الذنوب وكره أنَ يعود إليها فليعلم أنهَ مقبول، وإذا تذكر الذنب حزن وندم وانعصر قلبه من الحسرة فقد قبلت توبته، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: «أما إذا تذكر الذنبَ ففرح وتلذذ فلم يقبل ولو مكث على ذلك أربعين سنة» قال يحيى بن معاذ: «مَن استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود ، وعزمه أن يرجع إلى المعصية ويعود ، فصومه عليه مردود ، وباب القبول في وجهه مسدود».

زيادة الطاعة

ومن علامات القبول زيادة الطاعة: قال الحسن البصرى: «إن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها، فإذا قبل الله العبد فإنه يوفقه إلى الطاعة، ويصرفه عن المعصية، وقد قال الحسن: «يا ابن آدم إن لم تكن فى زيادة فأنت فى نقصان».

الثبات على الطاعة

وللثبات على الطاعة ثمرة عظيمَة كما قال ابن كثير الدمشقي– حيث قال رحمه الله: «لقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه يوم القيامة» فمن عاش على الطاعة يأبى كرم الله أن يموت على المعصية، وفى الحديث: «بينما رجل يحج مع النبي صلى الله عليه وسلم فوكزته الناقة فمات فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كفنوه بثوبيه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً». ويحذر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: «لا أعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل على رقبته جملاً له رغاء فيقول يا محمد يا محمد! فأقول قد بلغتك».

وقال عن الرجل الذى سرق من الغنيمة إن الشملة التى سرقها لتشتعل عليها نارا.

طهارة القلب

ومن علامات القبول أن يتخلص القلب من أمراضه وأدرانه فيعود إلى حب الله تعالى وتقديم مرضاته على مرضاة غيره– وإيثار أوامره على أوامر من سواه، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يترك الحسد والبغضاء والكراهية، وأن يوقن أن الأمور كلها بيد الله تعالى فيطمئن ويرضى، ويوقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه، وبالجملة يرضى بالله وبقضائه ويحسن الظن بربه.

تذكر الآخرة

ومن علامات القبول نظر القلب إلى الآخرة، وتذكر موقفه بين يدى الله تعالى وسؤاله إياه عما قدم فيخاف من السؤال، فيحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة، ولقد سأل الفضيل بن عياض رجلاً يوماً وقال له: كم مضى من عمرك؟ قال: ستون سنة، قال: سبحان الله منذ ستين سنة وأنت في طريقك إلى الله! قربت أن تصل، واعلم أنك مسؤول فأعد للسؤال جواباً، فقال الرجل: وماذا أصنع، قال: أحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وإن أسأت فيما بقي أخذت بما بقي وبما مضى.

إخلاص العمل لله

ومن علامات القبول أن يخلص العبد أعماله لله فلا يجعل للخلق فيها نصيباً، لأن الخلق في الحقيقة ما هم إلا تراب فوق تراب– قيل لأحد الصالحين– هيا نشهد جنازة فقال: اصبر حتى أرى نيتي، فلينظر الإنسان منا نيته وقصده وماذا يريد من العمل، وقد وعظ رجل أمام الحسن البصري فقال له الحسن يا هذا لم أستفد من موعظتك، فقد يكون مرض قلبي وقد يكون لعدم إخلاصك.